

الفصل الرابع

انجلترا في عصر أسرة تيودور

تبدأ إنجلترا تاريخها الحديث قبل أي دولة أوروبية أخرى ففي حين أن العديد من دول أوروبا تبدأ تاريخها بعصر النهضة فإن الانجليز يبدأون تاريخهم بفتح النورمانديين لبلادهم في عام ١٠٦٦م ، ويستندون في ذلك الى أن استيطان النورمانديين في إنجلترا وامتزاجهم مع شعبها قد نتج عنه تكوين الشعب الانجليزي الحديث الذي امتدت أملاكه الى العديد من دول أوروبا وخاصة فرنسا^(١) .

ونتيجة للتنازع على عرش إنجلترا قامت بها حرب اعلى أطلق عليها حرب الوردتين ١٤٥٥ - ١٤٨٥م نسبة الى شعار الأستين المتنازعتين على العرش ، فكانت الوردة البيضاء شعار أسرة يورك ، والوردة الحمراء شعار أسرة لانكستر وتمكنت من الاستيلاء على الحكم ، وبدأت في اضطهاد معارضيها بقسوة شديدة ، مما جعل الشعب الانجليزي ينفرد منها ويقوم بمؤازرة أسرة لانكستر حتى مكنها من الوصول الى العرش .

وقد استطاع « هنري تيودور » مؤسس هذه الأسرة والذي أطلق على نفسه « هنري السابع » أن يقود بلاده في فترة من أصعب فترات حياتها ، فنجح في إنهاء الحروب الاقطاعية ، وأوقف المغامرات الخارجية التي كانت بلاده قد انغمست فيها ، وعقد معاهدة تحالف مع أسبانيا .

(١) لم يستطع الانجليز المحافظة على ممتلكاتهم في فرنسا وبخاصة بعد حرب المائة عام وما قامت به « جان دارك » من بطولات نادرة ألهمت حماس مواطنيها .

ونتيجة لحركة الكشوف الجغرافية والمغامرات البحرية التي بلغت أوج قوتها في ذلك الوقت ، ونتيجة أيضا لاهتمام « هنرى السابع » بتشجيع تجارة بلاده وتنميتها شهدت إنجلترا رخاءا اقتصاديا لم تعرف له مثيلا من قبل .

والى جانب ذلك فقد ساعد هنرى على انعاش حرية الفكر في بلاده بتشجيعه لحركة النهضة واحياء العلوم والاصلاح الدينى كما عمل على تنظيم الادارة الحكومية حتى بلغت درجة عالية من الكفاءة .

وهكذا انصرف الانجليز عن خلافاتهم السياسية ، وبدأوا يعيشون عصرهم في ظل ملك قوى نجح في استتباب الأمن والنظام في أرجاء بلاده ، كما كانت له اليد الطولى في ادارة شئونها دون أن يعبا بسلطة برلمان أو غيره .

ولكى يقوم هنرى بتدعيم الملكية ويحد من سلطة النبلاء الذين قامت حرب الوردتين بسببهم قام باصدار عدة قوانين كان من أهمها « قانون غرفة النجم » عام ١٤٨٧م والذي ينص على مراقبة النبلاء والعمل على الحد من نفوذهم وقانون آخر يقضى بمحاكمة معارضى الملك بتهمة الخيانة ، وقانون ثالث يحرم على النبلاء جمع الأتباع والأئصار بغرض زيادة نفوذهم . يضاف الى ذلك القانون الذى شدد قبضة الملكية على شئون الصناعة .

وبهذه القوانين وما شابهها تمكن هنرى السابع من تأسيس ملكية قوية تحكمت بقبضتها على زمام الأمور في إنجلترا .

هنرى الثامن وحركة الإصلاح الدينى :

خلف هنرى الثامن والده في حكم إنجلترا عام ١٥٠٩م ويختلف عهده عن عهد أبيه اختلافا واضحا ، ففى حين كان الانجليز قد سئموا عهد والده لأنه ام يحقق لانجلترا اى مكاسب دولية ، فقد رحبوا بحكم ابنه الذى كانت لديه تطلعات واسعة في رفع رايات النصر لبلاده وجعلها قوة دولية لها مكانتها وهبتها ، فعمل على بناء أسطول قوى لانجلترا ، ونجح في اجبار فرنسا على دفع اتاوة سنوية لبلاده بعد انتصاره عليها ، وناصر أسبانيا .

مضد-فرنسا في الحلف المقدس، ١٥١١ م- وقام بتأديب الاسكتلنديين الذين حاولوا غزو بلاده ، وقام بتوحيد شمال إنجلترا وجنوبها ، يضاف الى ذلك رفضه وصاية البابوية على بلاده وتشجيعه لحركة الإصلاح الديني ، واستصداره القوانين التي ساعدت على نشر المذهب البروتستانتي في إنجلترا ، وأدت الى فصل الكنيسة الانجليزية عن كنيسة روما ، واتخاذها طريقا وسطا وقيام الاضطرابات والمظاهرات العادية للبابا ولم يكن ذلك بوازع ديني من جانبه حيث انه كان معروفا بمعارضته لحركة لوثر وكارهها لها منذ ظهورها لدرجة أن بابا روما منحه لقب حامى العقيدة لكتابته بحثا رد فيه على لوثر وأفكاره ، بل كان لأسباب سياسية وشخصية محضة جعلته يلقي بكل ثقله لتأييد حركة الإصلاح الديني ، وأهم هذه الأسباب هي :

١ — رغبته في التخلص من نفوذ كنيسة روما حتى يكون الحاكم الأعلى لإنجلترا سياسيا ودينا ، وأن يكون كل الصلطان في يده .

٢ — رغبته في التخلص من زوجته كاترين الارجونية أرملة اخيه الأكبر آرثر وابنة الملك فريد ناند ملك اسبانيا والزواج من وصيفتها « آن بولين » الذي أغرم بها ورغب في أن ينجب منها طفلا ذكرا يتولى الحكم من بعده وخاصة أن كاترين لم تنجب له سوى ابنته ماري . ولما كان ذلك العمل يعتبر منافيا للقوانين الكنسية في روما خصوصا وأن الطلاق محرم لدى الكاثوليك فقد كانت هذه الخطوة الخطيرة تلزم موافقة البابا ، ومع أن الباباوات غالبا ما يستجيبون لرغبات الملوك خفية ، فان الوضع كان يختلف في هذه المرة حيث كان البابا كلمنت السابع يعيش في ذلك الوقت تحت سيطرة شارل الخامس ملك اسبانيا وشقيق زوجة الملك هنري ويخشى اغضابه ونتيجة لذلك لم يستطع هنري الحصول على موافقة البابا بطلاق « كاترين » .

ولما تعددت المسألة اضطر الملك هنري الى اتخاذ عدة قرارات

ضد كنيسة روما فقد اختار « توماس كرومويل » Thomas Cromwell أكبر وأشد أنصار فضل كنيسة إنجلترا عن كنيسة روما ، وجعلها تحت

رئاسة ملك إنجلترا للعمل كنائب عنه في شئون الكنيسة ، وقد قام كرمويل بمساعدة الملك في التخلص من سياسة الكنيسة الباباوية وتحقيق مآربه في الطلاق من كاترين والزواج من آن بولين وبثلاث أخريات فيما بعد ، والاستيلاء على الاموال الخاصة بكنيسة روما في إنجلترا ، وببسط سلطانه الدينية والدنيوية على بلاده . وعلى الرغم من ابتهاج معظم الانجليز لهذه الخطوة فقد رفضها الكاثوليك المتعصبون ، وقاموا بثورة في شمال إنجلترا ضد الملك هنرى الثامن ، ولكنه استطاع القضاء عليها والسيطرة على الموقف .

وهكذا ظهر الاصلاح في إنجلترا بشكليه السياسى والدينى ، وساعد على ذلك رغبة الشعب الانجليزى فى وضع حد لغاسد الكنيسة الكاثوليكية ، وخاصة بعد أن ظهرت جماعة مصلحي اكسفورد التى أبرزت استقلال الباباوية لبلادهم فى بيع صكوك الغفران ، والحصول على مكاسب ضخمة نتيجة لذلك ، ورغبتهم ايضا فى الاستقلال بشئونهم عن أية سيادة أجنبية . او وصاية وبخاصة لأن الباباوية فى نظرهم كانت تمثل سلطة أجنبية عنهم .

وعلى كل حال فقد ترك الشعب الانجليزى لمليكه امر اختيار السياسة الدينية ، وقد ساعد الملك على ذلك أن البرلمان بمجلسيه كان خاضعا له . فأصدر تشريعاته الملائمة لرغبات الملك والمؤيدة للاستقلال عن الكرسي البابوى والاحتفاظ بالاموال التى كانت ترسل لروما كل عام فصدر قانون السيادة العليا الذى يعتبر الملك هو الرئيس الأعلى للكنيسة الانجليزية . القومية ، وخوله كل السلطات التى يتمتع بها الباباوات ، كما الفى ما كان للباباوية من سلطة فى المسائل الكنسية .

ونتيجة لذلك استطاع الملك هنرى أن يحقق استقلال الكنيسة الانجليزية وأن يكون رئيسها الأعلى ، كما استطاع أن يحقق رغبته فى طلاق كاترين ، والزواج من « آن بولين » ، وأن يملأ خزانته بالاموال التى كانت تتدفق من إنجلترا على كنيسة روما .

وهكذا يتضح انه على الرغم من أن حركة الاصلاح الدينى فى إنجلترا كان مبعثها أسبابا شخصية فانها ساعدت على ازدياد قوة الملكية وتهيئة

متطلباتها من وسائل الأبهة والقوة ، وأكدت المبدأ الذى نادى به هنرى الثامن بأن السلطة الملكية لا تتجزأ ولا تقبل القسمة .

وفى عام ١٥٤٧ توفى هنرى الثامن وخلفه ابنه ادوارد السادس من زوجته الثالثة جين سيمون .

ادوارد السادس وموقفه من البروتستانتية :

تولى ادوارد السادس الحكم فى الفترة من عام ١٥٤٧ وحتى عام ١٥٥٣ وكان قاصرا عند توليه الملك حيث لم يزد عمره عن العاشرة مما جعل المجموعة البروتستانتية المحيطة به برئاسة عمه ادوارد سيمور والذى أنعم عليه بلقب « دوق أوف سومرست » تسيطر على زمام الأمور ، وتسير بحركة الإصلاح الدينى شوطا بعيدا فصادرت ما تبقى من أموال الكنيسة ، وأدخلت المذهب البروتستانتى الى البلاد فى آن واحد كما تناولت التغيير فى العقيدة الكاثوليكية بالغاء طقوسها وتحطيم الصور والتماثيل الدينية وإباحة زواج القساوسة والغاء كل القوانين التى أدت الى اضطهاد البروتستنت . واصدار كتاب الصلوات العامة بالانجليزية ، وهو الكتاب الذى طبعته الكنيسة البروتستانتية بطابع قومى عام ١٥٤٩ ، وجعل الصلوات الجديدة جامعة مما أحدث عصيانا دينيا فى جنوب غرب انجلترا .

ونتيجة لهذه التفيرات قامت اضطرابات عنيفة داخل انجلترا بين الفلاحين الكاثوليك بالأقاليم الغربية ، كما قامت ثورات أخرى نتيجة لظهور شبح البطالة والتذمر من ارتفاع الأسعار ، ويرجع ذلك الى قيام أصحاب الحقول بإغلاقها ، وتحويلها الى مراعى للأغنام للاستفادة من صوفها بدلا من زراعتها ، ومن هنا طردوا الفلاحين الصغار من أراضيهم واحاطوها بأسوار ، وبذلك تحولت مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية الى حقول مسورة لتربية الأغنام مما أدى الى اشتداد البطالة وارتفاع الأسعار وتسبب فى غضب الرأى العام على الملك ادوارد واتهامه بجمع ثروة طائلة من أموال الكنيسة . وزاد الأمر توترا ومحاولات الملك ادوارد

السادس تغيير نظام الوراثة بحجة أن خليفته الشرعية على اليرش ماري كاثوليكية متعصبة ، كما أنها ابنة غير شرعية الملك .

ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، وتولت ماري تبودور الحكم بعد وفاة الملك ادوارد .

ماري قيودور (٢) :

تسلطت ماري ابنة هنري الثامن من زوجته الأولى « كاترين الأرجونبة » الحكم في عام ١٥٥٣م ، وتبذرت دافعها تعصبها للكاثوليكية الى اعادة حق الكلكة في العبادة الانجليزية مما قلب الأوضاع في إنجلترا رأسا على عقب كما كان من أول قراراتها استبدال الأساقفة البروتستانت بكاثوليك واعادة العلاقات مع روما وإلى جانب ذلك قامت بأضطهاد المخالفين للكاثوليكية ، فأحرقت أكثر من مئة من الأساقفة البروتستانت أحياء ومنهم الأسقف « كرانر » الذي بارك زواج والدها من « آن بولين » وأمرت بالفناء كتابى الصلوات المعمول بهما هذا التي جانب أنها وافقت على الزواج من « فيليب الثاني » ملك اسبانيا الكاثوليكي ، وألغت القوانين المعادية للباباوية منذ عهد هنري الثامن مما زاد من غضب الشعب الانجليزي عليها خصوصا وأنه كان يرنو الى الاستقلال بشئون بلاده عن كل من اسبانيا والباباوية وأصبح يخشى أن يؤدي هذا الزواج الى تحويل إنجلترا الى بلد تابع لاسبانيا ، ويورط إنجلترا في حروب مع فرنسا لا ناقة لها فيها ولا جمل . ونتيجة لذلك ارتفعت أصوات الاحتجاج ضدها ، ولكنها قاومت معارضيتها بشدة لم يسبق لها مثيل من التنكيل والارهاب لدرجة أن

(٢) عاشت هذه الملكة شبابها المأساوي الذي لم تذق خلاله قط طعما للسعادة ، ففي الثامنة من عمرها أعلن والدها بطلان زواج أمها ، وفي الخامسة عشرة من عمرها أفترق والدها عنها ، وأعلن أنها ابنة سفاح وتم تجريدها من لقبها كأمريرة بعد مولد أختها اليزابيث ، ثم استرضاهما وأدها بعد ذلك .

للتفاصيل انظر : ول نيورانت : قصة الحضارة ج ٤ ، المجلد السادس ص ١٥٤ .

أطلق عليها البعض اسم ماري « اليموية » كما اعتبر البعض الآخر عهدها بمثابة ردة بالأمور الدينية .

وعلى الرغم من أنها كانت ترغب في أن تلد أبنا من فيليب ، فإن شعبيها كان يخشى أن يكون ثمره زواجها من الملك الإسباني أنجاب طفل تجرى في عروقه الدماء الإسبانية ، ويصبح بعد ذلك وليا لعهد إنجلترا ، ولكن من حسن حظ الإنجليز أن « ماري » كانت عاقرا مما هدا من روعهم وأزاح عنهم كابوسا كان يقض مضاجعهم .

ورغبة من ماري في تلبية رغبة زوجها قامت بجر بلادها في حرب ضد فرنسا من أجل مصالح أسبانيا . . . ، مما جلب على إنجلترا أوحم العواقب حيث انتزع منها الفرنسيون ميناء كاليه عام ١٥٥٨ ونتيجة لذلك ضج الشعب الإنجليزي من حكم ماري الذي ارتبط في ذهنهم بالقتل وسفك الدماء والنضحية بمصالح بلادهم في سبيل أسبانيا وعلى كل حال فقد ابتسم الحظ للإنجليز بأن تكون خليفته هذه الملكة على العرش هي أختها اليزابيث . ابنة آن بولين .

الملكة اليزابيث (اليصابات) :

يعتبر عصر اليصابات من أزهى العصور في تاريخ بريطانيا الحديث حيث استطاعت بذكائها ودهائها إعادة روح الانسجام بين الشعب الإنجليزي التي طحنته الاضطرابات الدينية خصوصا بين الكاثوليك والبروتستانت وبخاصة أنها لم تكن متعصبة لأى طرف من الأطراف .

وفي عهدها ازداد البرلمان البريطاني قوة واتسع دوره وتوطد نظام الكنيسة الانجليكانية ، وازدادت قوة بريطانيا البحرية بحيث أصبحت سيدة البحار بلا منازع كما ظهر في عهدها العديد من الشخصيات الأدبية والروائية التي أنعشت الروح الأدبية في بريطانيا وكان على رأس هؤلاء وليم شكسبير .

وعلى الرغم من أن اليزابيث لم تكن متعمثة في النواحي الدينية فقد استطاعت صيغ بريطانيا بطابع مميز ففصلت كنيسة بريطانيا عن كنيسة

روما ، وأعدت كتاب الصلوات البروتستانتية ، ووضعت من القوانين ما يتيح لملك بريطانيا السيادة على جميع الشؤون الدينية والزمنية معا ومعاقبة كل من يقبل أى تعاليم من جهة أخرى ، كما أدخلت العديد من التعديلات على نظام العبادة ، بحيث أصبح نظام الكنيسة الانجليكانية بروتستانتى العقيدة كاثوليكي المظهر ولما لم يرض المتطرفون من الكاثوليك عن هذه التعديلات استغاث بعضهم بالملك « فيليب الثانى » ملك اسبانيا لانقاذهم من هذا النظام ، وطالبوه بالتدخل فى الأمور ، ونتيجة لذلك أرسل ملك اسبانيا أسطوله (الأرمادا) الى انجلترا فى عام ١٥٨٨م فى محاولة لتخليص الكاثوليك من النظام الانجليكانى .

وقد قبلت انجلترا التحدى ، واستطاع الأسطول الانجليزى الصفر الحجم تحطيم الأسطول الاسبانى فى معركة رهيبة عند القنال الانجليزى ، ولم ينج منه سوى أربع وخمسون سفينة انت عليها العواصف وجعلتها فى عداد التالفة .

ونتيجة لذلك انهارت امال الكاثوليك الانجليز فى مساعدة اسبانيا لهم ، وخرجت بريطانيا ظافرة منتصرة ليس فقط فى النواحي الحربية والسياسية ولكن ايضا فى القضاء على العقبات التى كانت امام تحولها الى البروتستنتية .